أفانين

أبو النجم الرجاز
وهشام بن عبد الملك
للأستاذ على الجندى

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

تركنا فى المقال الأول أبا النجم فى رصافة هشام أو رصافة الشام ، على حال تسرّ العدو وتسوء الحبيب ! منبوذاً من البلاط خائفاً يترقب ! لا طعام إلا ما يصيبه من مائدة الكلبى والتغلبى ، ولا مأوى إلا بيت الله يبيت فيه بلا وطاء ولا غطاء مع طُرّاق الليل وأبناء السبيل !

وقبل أن نقتصّ بقية أخباره نريد أن نعرف : كيف رانت الغفلة على عقله ، وكيف غاب عنه شيطانه الناصح ! فزلّ زلة ما كان أيسر أن يشيط بها دمُه لولا أن حفّه لطف الله الخفى ! وأى زلة أكبر من أن يعيب شاعر الخليفة فى وجهه بين غاشيته وخاصته ؟

الحق أن لأبى النجم بعض العذر ؛ فإنه لم يكن فى مقام المادح للخليفة المخاطب له بالشعر حتى يُعدّ مجبّها له ، وإنما هى أرجوزة أنشئت من قبل فى غرض خاص وسمعها الخليفة عرضاً ، وليس من المعقول أن نعطّل التشبيهات ، ونُبطل الوصف ونئد الفن إكراماً لحَوَل عين ولو كانت عين هشام ! فالكلام فى ذاته برىء من العيب ، وإنما جاء العيب من المصادفة السوداء !

والحق أيضاً أن جمهرة من الشعراء قبل أبى النجم وبعده وقعوا فى أشرّ مما وقع فيه ، وبعضهم لم يكن بادياً جافياً مثله ؛ بل كان حضرى الشمائل ، رقيق الحواشى ، مصقول الخاطر ، أنيق الطبع كأبى نواس ! ولا يتسع المقام لإيراد الشواهد ؛ فقد نجرد لها مقالاً خاصاً ، ونكتفى منها بمثال واحد :

يذكر الرواة أن ذا الرمة الشاعر ورد على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئاً من شعره ، فأنشده أول قصيدته البائية :

مابال عينك منها الماء ينسكب ؟ كأنه من كلى مفرية سرب[1]

وكان بعين عبد الملك شعرة فهى تدمع منها أبداً ، فتوهم أنه عرّض به ! فقال : وما سؤالك عن هذا يا أحمق ؟ وأمر به فأخرج

وقد علل ابن رشيق[2] انزلاق الشعراء إلى هذه المآزق ، فقال : إنما يُؤتى الشاعر فى هذه الأشياء من غفلة فى الطبع وغلظ ، أو من استغراق فى الصنعة ، وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أين ذهب

ثم قال — ينصح لهم — : والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها ، وينظر فى أحوال المخاطبين ، فيقصد محابهم ويميل إلى شهواتهم ، وإن خالفت شهوته ؛ ويتفقد ما يكرهون سماعه فيتجنب ذكره

ورأيى أنه كان واجباً على هشام فى أبهة الخلافة وجلال الملك وبهاء المنصب ، أن يتغاضى عن هنة غير مقصودة من شاعر نقى الفطرة ، سليم دواعى الصدر مثل أبى النجم ، وأحسب أن هذه السقطة لو وقعت فى بلاط معاوية أو المأمون أو الواثق ، ما زادوا على أن أسروها فى أنفسهم ، أو ضحكوا لها ضحكة مدوية ! ولو أن هشاماً جعلها دُبرَ أذنه ما كان لها هذا الشأن التاريخى ولأكبر الناس رحابة ذرعه ، ورجاحة حلمه ، ورموا أبا النجم بالفدامة وفساد الذوق !

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر نقول : إن حولة هشام لها نوادر مذكورة فى الكتب !

يحدث المسعودى فى مروج[3] الذهب : أن هشاماً عرض لا يكلفه إلا بضعة دريهمات ، ثم يضع الرجل يده فى يد المرأة أمام القاضى فيتم الزواج ويعد ذلك شرعياً حتى انقضاء المدة المعينة ؛ هذا وكل منهما حر أن يفترق عن صاحبه متى أراد أو أن يرتبط معه ثانية بعد انقضاء المدة المعينة ، أما إذا افترق أحدهما عن الآخر قبل انقضاء هذه المدة فعليه أن يدفع لصاحبه القيمة التى تسلمها منه أو اتفق معه عليها طبقاً للشروط التى عقدت بينهما ، وبعد ذلك يمكنه أن يتزوج على الصورة عينها متى شاء »

لو لم يكن النكاح الوقتى فاشياً بين العرب لاستحال وجود نساء يهبن أنفسهن ببضعة دريهمات ولأجل معين ، ذلك أن الأمة العربية فى جاهليتها لم تكن تعرف الزواج الشرعى الدائم .

(البقية فى العدد القادم) رفعة الحنبلى

(١) سرب القربة بفتح الراء : ما يقطر من خرزها
(٢) العمدة ١ — ١٤٩
(٣) مروج الذهب ٢ — ١٨٣

الجند يوماً بحمص الشام ، فمر به رجل من أهلها على فرس نفور فقال له : ما حملك على أن ترتبط فرساً نفوراً ؟ فقال الحمصى : لا ، والرحمن الرحيم ، يا أمير المؤمنين ما هو بنفور ، ولكنه أبصر حولتك فظن أنها عين غزوان البيطار ! فصاح هشام : تنح ! فعليك وعلى فرسك لعنة الله !

وكان غزوان هذا بيطاراً نصرانياً بناحية حمص يشبه هشاماً كل الشبه

ويحكى المبرد[1] : أن سالم بن عبد الله بن عمر ، دخل إلى هشام فى ثياب وعليه عمامة تخالفها ، فقال له هشام : كأن العمامة ليست من الثياب ، قال : إنها مستعارة . قال : كم سنك ؟ قال : ستون . قال : ما رأيت ابن ستين أبقى كدنة[2] منك ! ما طعامك ؟ قال : الخبز والزيت . قال : أما تأجمها[3] ؟ قال : إذا أجمتها تركتهما حتى أشتهيهما .

ثم خرج من عنده وقد صُدِع ! فقال : أترون الأحول قد لقمنى[4] بعينه ؟ قاتل من تلك العلة !

ونحب أن نقول بهذه المناسبة : إن الحول قد يعده بعض الناس ـ وأنا فى طليعتهم ـ من سمات العيون المستملحة كالحور والانكسار والدعج ، وبخاصة إذا كان الحول خفيفاً وهو ما يسمى بالقَبَل .

فى ترجمة ابن سريج[5] : أنه كان فى عينه قبل حول لا يبلغ أن يكون حولاً

وفى أخبار أبى الأسود[6] : أنه اشترى جارية حولاء فغارت منها زوجه وابنة عمه : أم عوف . فكانت تشارُّه[7] فى كل يوم وتقول : من يشترى حولاء ؟ فلما أكثرت عليه قال :

يَعيبونها عندى ، ولا عيبَ عندها
سوى أن فى العينين بعض التأخر
فإن يك فى العينين سوء ، فإنها
مهفهفة الأعلى ، رداح[8] المؤخر

(١) رغبة الآمل ٥ — ١٣١
(٢) بضم الكاف وكسرها : قوة الجسم أو كثرة اللحم والشحم
(٣) أجم الطعام من باب ضرب وفرح : كرهه
(٤) أصابه بالعين
(٥) الأغانى ١ — ٢٥٠
(٦) عيون الأخبار ٤ — ٥٨
(٧) تخاصمه
(٨) ثقيلة الأوراك

وقد عد بعض العشاق حول عينيه نعمة من الله تستوجب الشكر والحمد ! وساق ذلك فى شعر طريف علق عليه أبو هلال[1] العسكرى بقوله : إنه مما لا أظن له شبيهاً !

قال العاشق الشاعر الأحول :

حسدت إلهى إذ بليت بحبها على حول يغنى عن النظر الشزر
نظرت إليها ، والرقيب يظننى نظرت إليه، فاسترحت من العذر

ونعود إلى سياقة قصة[2] أبى النجم فنقول : إن محنته لم تطل ، فقد تأذن الله بكشف الغمة عنه وهيأ لذلك أسبابه !

فأمسى هشام ذات ليلة تَعِس[3] النفس منغّص المنام ! وهو عارضٌ كثيراً ما يعترى الخلفاء لما يكابدونه من جهد فى تصريف أمور الملك وتدبير شئون الرعية ، وإعمال الفكر فى سدّ الثغور ورتق الفتوق . وكانوا فى مثل ذلك يفزعون إلى السُّمار الظُّراف يتفكّهون بأحاديثهم ومُلَحهم . فتقدم هشام إلى خادم له أن يبغيه محدثاً ، وأن يكون أعرابياً أهوج شاعراً راوية ! ومن يكون ذلك المحدث الأعرابى الأهوج الشاعر الراوية غير أبى النجم ؟

وذهب الخادم يبحث عن طلبة الخليفة فقاده حسّه اللطيف إلى أحد المساجد ، وإذا هو برجل نائم فضربه برجله وقال : قم ، أجب أمير المؤمنين . فقال الرجل : أنا أعرابى غريب . قال : إياك أبتى ، فهل تروى الشعر ؟ قال : نعم ، وأقوله . فأقبل به من المسجد حتى أدخله قصر الخليفة وأغلق الباب وراءه ؛ فذكر الرجل حادثته مع هشام فرجف قلبه وأيقن بالشر المستطير ! ولكنه أسلم لله أمره واستفاد للخادم ؛ فأدخله إلى أمير المؤمنين فى بيت صغير من بيوت القصر ، بينه وبين أهله ستر رقيق والشموع تزهر بين يديه . فلما بصر به هشام قال : أبو النجم ؟ قال : نعم ، طريدك يا أمير المؤمنين . فأذن له بالجلوس وسأله عمن كان يُضيفه ؛ فأخبره خبر الكلبى والتغلبى . قال : وكيف اجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر . قال : وأين كنت تأوى ؟ قال : فى المسجد حيث وجدنى رسولك

وأطرق هشام برهة لعله راجع فيها نفسه فندم على ما كان منه مع أبى النجم ! ثم رفع رأسه وقال له : مَا لَكَ من الولد

(١) ديوان المعانى ١ — ٢٧٢
(٢) وردت القصة فى العقد والأغانى والكامل للمبرد وخزانة الأدب للبغدادى باختلاف يسير
(٣) تعست نفسه : غثت

والمال ؟ قال : أما المال فلا مال لى ، وأما الولد فلى ثلاث بنات وبُنيّ يقال له : شيّان . قال : هل أخرجت من بناتك ؟ قال : نعم ، زوجت اثنتين وبقيت واحدة تجمز[1] فى أبياتنا كأنها نعامة . قال وما وصيت به الأولى ؟ ـ وكانت تسمى برّة ـ قال :

أوصيتُ من بَرّة قلباً حُرا ... بالكلب خيراً والحماةِ شرّا
لا تسأمى ضرباً لها ، وجَرا ... حتى ترَى حلو الحياة مُرّا
وإن كستك ذهباً ودُرا ... والحىّ عُمّيهم بشرّ طُرّا

فضحك هشام ، وقال : فما قلت للأخرى ؟ قال : قلت :

سُبّى الحماة وابهتى[2] عليها ... وإن دنتْ فازدلفى إليها
وأوجعى بالفِهْر[3] ركبتيها ... ومرفقيها ، واضربى جنبيها
وقَصّدى كفيك فى صُدْغيها ... لا تخبرى الدهرَ بذاك ابنيها

فضحك هشام حتى بدت نواجذه ، وسقط على قفاه ! وقال : ويحك ! ما هذه وصية يعقوب لولده ! قال : ما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين ولا ولدى كولده .

قال : فما قلت للثالثة ؟ قال : قلت :

أوصيك يا بنتى فإنى ذاهب ... أوصيك أن يحمدك الأقارب
والجار والضيف الكريم الساغب ... لا يرجع المسكين وهو خائب
ولا تنى أظفارك السلاهب[4] ... لمن فى وجه الحماة كاتب

والزوج ، إن الزوج بئس الصاحب

قال : فأى شىء قلت فى تأخير زواجها ؟ — وكان اسمها : ظَلاّمة — قال : قلت :

كأن ظلامة أخت شَيّان[5] ... يتيمة ووالداها حيّان
الرأسُ قلٌّ كله وسِبْيان ... وليس فى الرجلين إلا خيطان
وقُصّة قد شيّطها النيران ... تلك التى ينزع منها الشيطان

فضحك هشام حتى ضحكت النساء لضحكه ! وقال للخصىّ : ما فعلت الدنانير المختومة التى أمرتك بقبضها ؟ قال : هاهى عندى ووزنها خمسمائة . قال : ادفعها إلى أبى النجم ليجعلها فى رجلى ظلامة مكان الخيطين !

على الجندى

(١) تعدو وتسرع
(٢) اكذبى على التضمين وفى بعض الروايات : انهق . والنهيت : صوت الأسد دون الزئير ، وقد رجح هذه الرواية العلامة المرصفى
(٣) الحجر ملء الكف
(٤) الطوال على المجاز لأنها فى الأصل وصف الخيل
(٥) فى الأغانى والكامل : شيبان

صراع ...!

سألتُ صديقى الأستاذ (عين) أن يعيرنى منظاره ساعة من زمان ، علّى أرى من خلاله ما توسوس به نفوس قوم قضيت بينهم عمراً من عمرى ، أحسن الظن بهم ، وأقربهم إلى نفسى خشية أن يستشمروا الوحدة ، وأنزل لهم عن بعض مالى خيفة أن يجدوا لذع الموز ، وأواسيهم فى البأساء ضناً بقلوبهم أن يأكلها الأسى و ... ؛ فلما أعرضت الأيام عنى ، انطلقتُ أفتش عبثاً ، وإذا أنا على حَيْد الطريق ، وحيداً تكاد تعصف بى أعاصير الحياة لولا بقية من أمل ...

وأراد صديقى الأستاذ (عين) أن تكون له عندى يدٌ أخرى، فقدّم إلىّ منظاره فى رضى ، فوضعته على أنفى فى خيلاء ، ودلفت إلى الشارع فى أناة وتؤدة ، وهو من ورائى يشيعنى بنظراته الباسمة

وخشيت أن ينزلق المنظار من على أنفى وأنا أتخطّر فى مشيتى ، ومالى عهد بالمناظير ، فيتحطم وأنا به ضنين ؛ فانتحيت ناحية أصلح من شأنى وشأنه ، وأزوّر فى نفسى أمراً ، فما راعنى إلا صوت ينادينى باسمى

والتفت فإذا صديقى (م) وزوجته يسيران الهوينى جنباً إلى جنب وذراعاً فى ذراع ، وقد عرته حمى الضحك حين رآنى أقلب المنظار بين يدى ، أضعه على عينى مرة ، وأخلعه مرة ، فى حيرة وتردد ؛ غير أنى تغاضيت عن مجونه وأنا أدنو منه

لقد نشأ صاحبى (م) ـ كما نشأت أنا ـ بين ربوع الريف فى ظل القرية الوارف الجميل ، لم تلوث المدنية دمه الطاهر ، ولا دنست الحضارة قلبه الزكى . عرفته وعرفنى أول عهدى بالمدرسة ، فهو أول من جلست إلى جانبه فى فصل ، وأول من تحدثت إليه فى مدرسة ، وأول من سكنت إليه فى درس ، وأول من لاعبته ... ودرجنا ودرجت معنا الصداقة الجميلة الرفّافة ، والأيام تجمع بيننا وتفرق ، ونحن على عهد من الود

لا نقطعه ، وميثاق فى الهوى لا نخيس به ، وفى القلبين أواصر لا تستطيع نوازع الحياة أن تعبث بها ، ولا تطمع حاجات المعيش فى أن تطغى عليها

وبهرت المدينة صاحبي أول ما هبط القاهرة ، وهو قد هبطها طالباً فى الجامعة ، فاستلبه بهرجها من وقار القرية وحيائها ليقذف به فى هذر الحياة ولجونها ، وجرفه التيار وهو عنيف ، فما استطاع أن يخطو الخطوة الأخيرة من تعليمه الجامعى إلاّ وهو يلهث من أثر الإعياء والبهر ، ثم أرخى لنفسه العنان

وتعرف إلى ابنة (فلان) بك ، وهو عين من أعيان القاهرة استطاع أن يخلق من جاهه وظيفة مرموقة يقدمها مهر الزواج إلى زوج ابنته الوحيدة ... إلى صاحبي

وشاء (البك) ألا يحرم النظر إلى وحيدته ، وهى قرة عينه وفرحة قلبه ، وما فى القصر سواها بعد أن ماتت عنها أمها ، وسوى زوجته الجديدة ، وهى فتاة فى فجر العمر وثورة الشباب تزوجت من (البك) وفاء دين كان على أهلها ، فلمست فيه برد شبابها المضطرم ، وأحست بعد ما بين شيخوخته الذاوية وبين نضارتها المتألقة ، فانطوت على نفسها تبكى حظها العاثر ، ثم ... ثم أشرق صاحبي الشاب فى الدار فابتسمت له حين وجدت فى غدوه ورواحه حياة تتوثب

وعاش الفتى فى هذه الدار يتغنى بالسعادة ويترنم بالهناءة ، وهو يحدثنى حديثه — بين الفينة والفينة — فأستبشر لكلماته ويطمئن قلبى

لا جرم ، فالآن قد نفذ بصرى من خلال المنظار إلى الحقيقة التى لا يعرفها صاحبي ، الحقيقة التى إن جاشت بها نفس الزوج طمّت عليها ابتسامات الزوجة الرقيقة ...

هذه هى الزوجة الطيعة الوفية تتراءى لى وهى تنظر إلى زوجها الربيع الساذج فى احتقار وسخرية ، وفى نفسها أنه صنيعة أبيها ويد من أياديه ، أقامه وهو يتكفأ فى مضطرب الحياة ، ولمّ شعثه من شتات ، وخلق منه رجلاً ذا مال وأنق وهو على خطوة من التصعلك ، ثم هى لا تحس باحترامه ولا تشعر بكرامته ، وكيف ؟ وهو قريب عهد بآداب الجماعات والحفلات ، لا يعرف الرقص ، ولا يتقن (البوكر) ، ولا يصبو إلى الأصفر والأحمر من شرابهم

وإن حمرة الخجل لتربط على لسانه إن هو جلس إلى فتاة غربية ، وإن فورة الغيظ لتسيطر عليه إن جلست هى إلى شاب غريب ؛ وهى فتاة من بنت الشارع[1] ترى فى طباعه تزمت الأغبياء ، ورجعية العقراء ، واضطراب الجهلاء ، فتعبث به ، وهى فى مأمن من ثورته ، لأنه عبد أبيها ...

ورحت أحدق فى الزوجة لأتغلغل إلى خلجات ضميرها ... وهى تتصاغر فى عينى ، وهو يتضاءل تحت منظارى ، حتى بلغنا سيارة (البك) ، وفيها زوجته الشابة تنتظر ... لقد أرادت أن تخلو إلى نفسها ساعة تدبر أمراً ...

وعجبت أن رأيتها تلتصق بصاحبي تريد أن تستشعر الدفء من شبابه ، وهى تحاول أن تصرفه عن زوجته رويداً رويداً لتستمتع به ، وفى قصر زوجها ، غيرأنها كانت تخشى صولة (البك)

ونظرت إلى زوجة صاحبي فألفيتها لا تستطيع أن تلمس خواطر تتغزى فى قلب زوجة أبيها ، لأن حياتها المائجة كانت قد أسدلت على عينيها ستاراً لا ترى من ورائه إلا الحفلات والسهرات ، وإلا الزينة والسمر ، وإلا ... فأوشك البيت أن يتداعى عليها

وعجبت لهذا الصراع النفسانى يحوم حول صاحبي وهو عنه فى غفلة ؛ فرفعت بصرى إلى السماء أحوله عن بعض ما رأيت ؛ غير أنى ذهلت أن رأيت صفحة من صفحات القدر منشورة أمامى أقرأ فيها : أن (البك) قد مات ، وأن الثروات المكبوتة قد ثارت . فيا ترى من ذى التى تفوز ؟

* * *

وأنت يا صاحبي لا تلمنى فلقد كتبت لك سطراً من حياتك علك تجد لنفسك مخرجاً قبل أن تتردى

(مشتهر) أمل محمود حبيب

(١) ابنة الشارع : علم على الفتاة الحديثة التى تدر الدار وتنطوى عن أعمالها لتتفن فن الشارع ، وسنتحدث عنها فى مقال آخر ، إن شاء الله .

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس لتبريشفلد فرع القاهرة
بعمارة مدنيه نمرة ٤٦ شارع المرايع تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع أمراض التناسل
والمؤثر على الجنس والتناسلية والعقم عند الرجال والنساء وضعف الشباب
والشيخوخة المبكرة ويعالج بصفة خاصة بتربية الحساسية طبقاً لأحدث الطرق العلمية
والعيادة من ٢-١ و من ٤-٦ . مدير المعهد : بركس اطباء زميل بالجمعية الملكية
بلندن وعضو الجمعية الدولية للتناسليات والجمعية الملكية للصحة العامة

(سجل تجارى ٥٢٢٧)